

الجوانب الإيجابية في صفة القرن الأمريكية



ليس أسوأ في تاريخ القضية الفلسطينية من صفة القرن سوى احتلال فلسطين وضياعها، والتآمر عليها ونكبتها، وطرد أهلها وتشتيت سكانها، فإن كانت فلسطين الأرض والوطن والتاريخ والمقدسات قد بدأ احتلالها صهيونياً قبل العام 1948، وتواصل بعد ذلك إلى أيامنا هذه، فإن^١ صفة القرن تسلب القضية الفلسطينية كلّياً، وتنهي ملفاتها وتنفي الصفة عن أبنائها، وتشتت أهلها تحت جنسيات عدّة، وفي كنف بلاد عديدة، وتشعر للمستوطنين الغزارة اليهود الذين وفدوا إلى بلادنا الأرض التي اغتصبواها والديار التي سكنوها، وتسوي مشاكلهم مع دول الجوار ليأمنوا الخطر ويعيشوا في سلام، وتنعش اقتصادهم وتنمي أموالهم، وتخلق لهم أسواقاً عربية مكشوفة، تدخل إليها بضائعها علينا وبصورة مباشرة، ولا تضطر إلى التزوير والخداع لتصل إليها، لتخلق مع المواطنين العرب أجواء طبيعية من السلم والتعايش والقبول والتعاون، فضلاً عن الاعتراف بوجودها ورفع علمها وتبادل العلاقات الدبلوماسية معها.

إلا أن^٢ لهذه الصفة اللعينة جوانب إيجابية أخرى ساعدت في كشفها، أو عملت على إظهارها وإبرازها بعد أن كاد الزمن يطويها والأحداث تتجاوزها وتنسى إياها أو تحرمنا وتجرّتنا منها، خاصةً في ظل

الواقع الجديدة والمستجدات الراهنة، التي خلقتها الإدارة الأمريكية الجديدة، والواقع العربي الرسمي المزري الضعيف المنهار، والمتأمر الشريك، والتابع الخاضع، الذي أورثنا بتخاذله وسقوطه اليأس وسلمنا إلى القنوط، وجعلنا وحدنا في مواجهة دولة الاحتلال والإدارة الأمريكية، التي تخطط له وتسانده، وتساعده وترفده، وتعزره وتنصره.

صفقة القرن أظهرت وحدة الشعب الفلسطيني واتفاقه، سلطةً ومعارضةً، منظمةً مقاومة، شعباً وأحزاباً، قوىً وتجمعاتٍ، نقاباتٍ واتحاداتٍ، وطنًا وشتاتاً، مدنًا ومخيماتٍ، في فلسطين المحتلة وخارجها، فأعلن الفلسطينيون بكلٍّ ألوانهم الفكرية وانتماءاتهم السياسية، برأيٍ واحدٍ وصوتٍ عالٍ وموقفٍ صريحٍ، رفضهم لصفقة القرن وعدم قبولهم أو اعتراضهم بها، وأنّهم ضد مَن يقبل بها أو يتغاض عنها، وشكّلوا بموقفهم الموحّد سابقًا فلسطينيةً عزٌّ نظيرها واحتى الشعب كثيراً مثلها، وتمنى لو أرّها كانت قدّيماً وتكرّرت في كلٍّ المراحل والأزمات، إذ أنّ الوحدة سبيل النصر وبواحة النجاح، وهي السد المانع لكلٍّ المؤامرات والتحدّيات.

وحّدت الصفقة المهيّنة الأرض الفلسطينية كلّها وعادت بنا إلى سني الصراع الأولى، صراع الوجود والبقاء أو الضياع والفناء، وهو ما شعر بخطورته الإسرائييليون أنفسُهم، إذ قال مفكروهم أنّ الصفقة أحبت مفاهيم الصراع الأولى، وأعادت الفلسطينيين إلى مفردات المقاومة وأدوات العمل المسلح، فتجريد الفلسطينيين من حقوقهم وحرمانهم من أحلامهم، سيدفعهم بالتأكيد إلى الأصول الأولى لقضيّتهم، فهي التي توحّدُهم وتجمعهم، وفي هذا خطراً كبيراً على مستقبل إسرائيل وأمنها، إذ سيسقط الاعتراف بها وينتهي التعاون معها، وستبدأ مرحلة جديدة قوامها العنف وروادها الراديكاليون الفلسطينيون، الذين يملكون ما يقولون وعندّهم ما يقدّمون، ومعهم دولٌ قويةٌ تساندهم وتويدّهم، وتشجّعهم وتساعدهم، تشكّل خطورةً على مستقبل إسرائيل، وتسعى مع المقاومة الفلسطينية لشطبها وإزالتها من الوجود.

صفقة القرن كشفت عن زيف مساعي السلام وكذب الرغبات الإسرائيليّة، وأسقطت اتفاقية أوسلو وتجاوزتها، وتنكّرت لها وتخلى عنها، فلم تعد دولة الكيان الصهيوني تعترف بها أو تقبل بوجودها، ولم تعد مجبرةً على الالتزام بمهلها والتقيّد بمراحلها، رغم أنّها أخلت قدّيماً ببنودها ولم تلتزم بها، وقد مضى عليها أكثر من ثلاثين سنة دون أن تتحقّق للفلسطينيين الموقعين عليها شيئاً مما أملوا فيه أو سعوا إليه، فاستغنى الإسرائييليون عنها وتنكّبوا بصفقة القرن لها، فهي بالنسبة إليهم أفضل بكثيرٍ من اتفاقية أوسلو، وتعطيهم أكثر مما كانوا يحلمون، وأفضل مما كانوا يأملون وأعظم بكثيرٍ مما يطمحون.

صفقة القرن إلى جانب الموقف الفلسطيني الموحد ستخرج الأنظمة العربية المتتساوية مع الكيان، والمشتركة معه ومع الإدارة الأمريكية في صياغة الصفقة، وهي التي أبدت تعهداتها بتطبيق ما يطلب منها أو تكلف به، ولكنّها ستجد نفسها مع الأيام مجرّدة من صفة التمثيل أو النيابة، فهي لا تملك ما تعطي، ولا تستطيع أن تفي بما لا تستطيع، فضلاً عن أنّ شعوبها لا تتوافق على ما تعلن، ولا تقبل بما تقدّم، فالفلسطينيون يرفضون أن ينوب عنهم أحد في تقرير مصيرهم والحديث باسمهم، وهم قد قالوا كلّمتهن مدويةً صاحبة صريحةً مباشرةً، لا لصفقة القرن، ولا لكلّ مَنْ يقبل بها أو ينفّذ بنودها.

صفقة القرن أثبتت عدم نزاهة الوسيط الأمريكي، وأنّه غير موضوعي ولا حيادي، بل هو طرف معادي وشريكٌ محتلٌ، يفكّر نياً بـ عن الاحتلال ويخطّط له، ويُشجّعه على سياساته ويناصره في عدوّاته، فلم يعد يصلح لرعاية ما يسمى بـ مفاوضات السلام وضمان تطبيق الاتفاقيات، ولعلّ الجريمة التي اقترفها بعد جرائمه السابقة التي ارتكبها في مسائل القدس واللاجئين والمستوطنات، تقنع المراهنين على صدقية المواقف الأمريكية وجديّة واسطتهم، أنّهم مخطئون في تقديراتهم، وغير عاقلين في توقعاتهم، فسراب الإدارات الأمريكية سيُبقي سرّاباً، ولن تكون مواقفها مهما طال الزمن وتغيّرت الإدارات ماءً زلاً ولا عذباً فراتاً.

في الوقت الذي لا أستخف فيه بـ صفقة القرن ولا أقلّ من خطورتها، فإنّني لا أدعى بساطتها وعدم جديتها، لكنّني لا أقلّ أبداً من تداعياً لها الإيجابية على الفلسطينيين وشعوب الأُمم العربية والإسلامية، بل أرى أنّنا نستطيع أن نحوال المحنّة إلى منحة، والأزمة إلى فرصة، والسقطة إلى رفعة، وأن نقلب المشروع الإسرائيلي ونعطي مخطّطاً لهم، لكن علينا حتى ننجح في ذلك أن نبدأ بالخطوة الأولى وأساساً، ألا وهي تحقيق الوحدة الفلسطينية، والانتهاء من الانقسام ومغادرة مربعات المصالحات الحزبية، حينها تكون منية الإسرائيليين في أمنيتهم، وخاتمتهم في مسؤول أحالمهم، وتكون رفعتنا في صدمتنا ونهضتنا في كيوبتنا.